﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦﴾ [الحجر: 26]

تذكيرُ الإنسانِ بِمَبدأِ أصْلِه دليلٌ على قُدْرةِ اللهِ على إعادةِ خلْقِهِ وبعْثِه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا جرَتْ سنَّتُه الإلهيةُ سُبحانه وتعالى على أنْ يذكرُ ابتداءَ الخلق دليلًا على الإعادة سابقًا ولاحقًا، وابتدأ هنا بذكْرِ الحشْرِ لِما قام عليه منَ الدّليلِ بإحياء الأرضِ، توقَّعَ السّامعُ تفصيلَ ابتداءِ الخلْقِ الذي هو أدلُّ دليل على البعثِ بعد إجمالِه في قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ فجاءت هذه الآيةُ[1].

وأيضًا لَمّا نَبَّهَ تعالى على مُنتَهَى الخَلْقِ وهو الحَشْرُ يَوْمَ القيامَةِ إلى ما يَسْتَقِرّونَ فيه، نَبَّهَهُم على مَبْدَأِ أَصْلِهِم آدَمَ، وما جَرَى لِعَدُوِّهِ إبْليسَ مِنَ المُحاورَةِ مع اللهِ تعالى[2].

وأيضًا: لَمّا أقامَ اللهُ تعالى الدّليلَ في الآياتِ السّابقةِ على أنَّه المُنفردُ بخلْقِ أجناسِ العالَمِ منَ السّماءِ والأرضِ وما فيهما وما بينَهما، ولمّا ذكرَ الإحياءَ والإماتةَ كان من أهمِّ الإحياءِ إيجادُ النّوعِ الإنسانيِّ؛ فجاءت هذه الآيةُ تَكْمِلةً لهذا الدّليلِ وتقريرًا لقُدرةِ اللهِ على إمكانِ البعثِ والحشْرِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَلۡصَٰلٖ﴾: أصلُ (صلّ): أمرانِ: الأوّلُ: ندًى وماءٌ قَليلٌ، والآخَرُ: صَوْتٌ، فَأمّا الأوَّلُ فالصَّلَّةُ، وهي الأرْضُ، تُسَمَّى الثَّرَى لِنَداها، على أنَّ مِنَ العَربِ مَنْ يُسَمّي الصَّلَّةَ التُّرابَ النَّديَّ؛ ولذلك تُسَمَّى بَقِيَّةُ الماءِ في الغَديرِ صُلْصُلَةً[4]. والصَّلْصالُ: المُنْتِنُ من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/42.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/475.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/41.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلّ).

الطّين، من قولهم: صَلَّ اللّحمُ وأصَلَّ(1). وأمّا الثّاني: فتردُّدُ الصّوتِ مِنَ الشَّيء اليابسِ. يُقالُ: صَلَّ اللِّجامُ وغَيْرُهُ، إذا صَوَّتَ. فإذا كَثُرَ ذلك مِنْهُ، قيلَ: صَلْصَلَ(2). وقال أبو إسْحاق: الصَّلصالُ: الطينُ اليابسُ الَّذي يَصِلُّ من يُبْسِه، أي: يصوِّتُ(3)، ونَحْوَ ذلك قال الفراء(4)، قال الأزهري: هو صَلصال ما لم تُصِبه النّار، فإذا مسّته النّار فهو فَخّار(5). والمقصودُ بالصَّلصالِ في الآية: الطّينُ الَّذي يُتْرَكُ حَتَّى يَيْبَسَ، فَإذا يَبِسَ فَهو صَلْصالٌ، وهو شِبْهُ الفَخّارِ إلّا أنَّ الفَخّارَ هو ما يَبِسَ بِالطَّبْخِ بِالنّارِ، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ١٤﴾ [الرَّحْمٰن: 14](6).

2) ﴿حَمَإٍ﴾: أصلُ (الحمأ): اسْودادٌ ونتانةٌ، ومنه: الحَمَأُ: الطّينُ الأسودُ المُنتن، وحَمِئَتِ البئرُ حَمَأً، بِالتَّحْريك، فَهيَ حَمِئَةٌ إذا صارَتْ فيها الحَمأةُ وكَثُرَتْ. وحَمِئَ الماءُ حَمَأً وحَمَأً خالَطَتْهُ الحَمأة فكَدِرَ وتَغيرت رائِحَتُهُ. وعَيْنٌ حَمِئَةٌ: فيها حَمأةٌ؛ وفي التَّنْزيل: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: 86](7). والمقصودُ بالحَمَأِ: الطّينُ إذا اسودَّ وكُرِهَتْ رائِحَتُهُ.

3) ﴿مَّسْنُونٍ﴾: (السنُّ): جَرَيانُ الشَّيْءِ في سُهولَةٍ، يُقالُ: سَنَنْتُ الماءَ على وجْهي أسُنُّهُ سَنًّا إذا أجْرَيْتُهُ. وروي عنِ ابن عباس أنَّه قالَ: المسنونُ الطّينُ الرَّطبُ؛ لأنّه إذا كان رطبًا يسيلُ وينبسطُ على الأرض فيكونُ مسنونًا؛ كأنَّه مصبوبٌ(8). والمَسْنون: المُنْتِن، أي: مُتَغَيِّرٌ مُنْتِنٌ؛ يُقال: سُنَّ الماءُ فهو مَسْنونٌ، أي: تَغَيَّرَ(9)؛ وقال الزّجّاج: قيل فيه مُتَغَيَّر؛ وإنما أُخذ من أنَّه على سُنَّةِ الطريق؛ لأنّه إنّما تغيّرَ إذا قام بغير ماءٍ جارٍ(10). أمّا ابنُ عاشور فيرى: أنَّ المَسْنونَ هو الَّذي طالَتْ مُدَّةُ مُكْثِه، وهو اسْمُ مَفْعولٍ مِن فِعْلِ سَنَّهُ إذا تَرَكَهُ مُدَّةً طَويلَةً تُشْبِهُ السَّنَةَ. ويرى أنَّ فِعْلَ (سَنَّ) بِمَعْنَى تَرَكَ شَيْئًا مُدَّةً طَويلَةً غيرُ مَسْموعٍ. ولَعَلَّ (تَسَنَّهُ)

(1) الراغب، المفردات: (صلل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلّ).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (صلّ).
(4) الفراء، معاني القرآن: 2/88.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (صلّ).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/41.
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حمأ).
(8) ابن الأنباري، الأضداد، ص: 398، والواحدي، التفسير البسيط: 12/598.
(9) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سنن).
(10) الزجاج، معاني القرآن: 3/179.

بِمَعْنَى تَغَيَّرَ مِنْ طولِ المُدَّةِ أَصْلُهُ مُطاوِعُ سَنَه ثُمَّ تُنوسيَ مِنْهُ مَعْنَى المُطاوعَةِ[1]. وهو المقصودُ بالآية هنا.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

خَـلْـقُ الله تعالى آدَمَ من صَلْصالٍ أعْجبُ وأتمُّ في الدَّلالةِ على القُدرة

يُخبِرُ اللّه تعالى أنَّه خَلَقَ آدمَ من طينٍ قدِ اشتدَّ يُبسُه بعدما خُمِّرَ، حتَّى صارَ له صوتُ صَلصلةٍ إذا نُقِرَ، وهذا الصَّلصالُ من طينٍ أسودَ متغيِّرٍ؛ مِن طولِ مُكثِه[2]. فظاهِرُ هذه الآيةِ أنَّ آدمَ خُلِقَ مِن صَلصالٍ، أي: طينٍ يابسٍ، وقد جاء في آياتٍ أُخَرَ ما يَدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ [الصافات: 11]، وكقَولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59] والجوابُ: أنَّه ذكَرَ أطوارَ ذلك التُّرابِ، فذكَرَ طَورَه الأوَّلَ بقَولِه: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]، ثُمَّ بُلَّ فصارَ طينًا لازِبًا، ثمَّ خُمِّرَ فصار حمَأً مسنونًا، ثمَّ يَبِسَ فصار صَلصالًا كالفخّارِ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ تَصْديرِ الآيةِ بـ﴿وَلَقَدْ﴾:

خَـلْـقُ الإنـسانِ والجانِّ من أظْهرِ الأدلَّةِ على وجودِ الله وتَوحيدِه

لَمّا كانَ مساقُ الآيةِ للدّلالةِ على كمالِ قُدرة اللّه تعالى وبيانِ بدْءِ خلْقِ الثَّقلَيْن أكّدَ هذا الأمرَ باللّام الموطِّئة للقسَم و(قَدْ)؛ للإيذانِ بأنَّ خلْقَ الإنسان والجانِّ من أظهرِ الأدلَّة على وجودِ اللّه وتَوحيدِه، ففي ذكْرِ ابتداءِ الخلْقِ على وصولِ البشرِ إلى أصْلٍ كان بمحضِ القُدرةِ مُخالفًا لهم في التّكوين بين أبوَين، وانتهاءِ الجنِّ إلى أصلٍ ليس خلْقُه كخلْقِهم، تنبيهٌ عظيمٌ على انتهاءِ المَوجوداتِ إلى موجودٍ لا يُجانِسُهم، بل هو خالقٌ غيرُ مخلوقٍ، فاعلٌ بالاختيارِ، واحدٌ لا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/42.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/59، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/21، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 431.

(3) الشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 131.

شريكَ له، ولا اعتراضَ عليه، قادرٌ على ما يريدُ سُبحانه، كما أفادَ التّأكيدُ التّنبيهَ على المقدّمةِ الثّانية التي يتوقّفُ عليها إمكانُ الحشْرِ، وهو قَبولُ موادِّ الخلْقِ جميعًا للجمْعِ والإحياءِ والبعثِ والنّشورِ[1].

دَلالةُ (ال) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

(ال) هنا عهديّةٌ؛ للإشارةِ إلى آدمَ ﷺ، ويجوزُ أن يرادَ بـ(ال) الجنْسُ كما هو الظّاهرُ من لفْظِ الإنسان؛ لأنّ تشعُّبَ جنسِ الإنسانِ لمّا كان من شخصٍ واحدٍ خُلِقَ من مادَّةٍ واحدةٍ كان الجنسُ بأسْره مخلوقًا منها، والمعنى: خلقْنا أصلَ الإنسانِ وأوَّلَ فردٍ من أفرادِه خلْقًا بديعًا مُنطويًا على خلْقِ سائرِ افرادِه انطواءً إجْماليًّا[2].

لمّا كانَ الإنسانِ مَخلوقًا من مادَّةٍ واحدةٍ كان الجنْسُ كلّه في حُكمِ المخْلوقِ منها

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

لم يَرِدْ في القرآنِ ذِكْرُ اسْمِ آدمَ ﷺ عند بيانِ أنَّ أصلَ الخلْقِ كان من حمأٍ مسنونٍ، فلم يقل (ولقد خلقنا آدمَ من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ)، ولم يَرِدْ هذا الوصفُ إلّا عند ذكْرِ الإنسان أو البشرِ، ونُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ الإنسانِ هنا مع أنَّ المرادَ آدمُ هو تذكيرُ كلِّ إنسانٍ مخاطَبٍ بأنَّ أصلَه بذاتِه وأوصافِه كان من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ، فلا يغترَّ ولا يتكبَّرَ، ولْينظرْ إلى عظمةِ اللّه وبديعِ خلْقِه ومُقتضَى حِكمتِه وسَعةِ علْمِه سُبحانه، وفيه إشعارٌ ببديعِ صُنعِ اللّه في تصويرِ الإنسانِ وعظَمتِه، وأنّها من أجملِ صوَرِ الخلْقِ، ففيه تعجيبٌ من صورةِ خلْقِه وما هو عليه؛ لِمَجيءِ اللّفظ في سياقِ تعظيمِ قُدرةِ اللّه وبديعِ خلْقِه، وفيه تنبيهٌ على أنَّ كلَّ فردٍ من أفرادِ البشرِ له حظٌّ من إنشاءِ آدمَ ﷺ منه، فكان خلْقُه ﷺ منَ الطّين خلْقًا لكلِّ أحدٍ من فروعِه منه، ولمّا كان خلْقُه على هذا النَّمطِ السّاري إلى

لا تَغْترَّ أيُّها الإنسانُ ولا تَتَكبَّرْ فأصْلُك من حمأٍ مَسنونٍ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والبقاعي، نظم الدرر: 11/43، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210.

جميع أفراد ذرّيته أبدعَ من أن يكونَ ذلك مقصورًا على نفسِه؛ كما هو المفهومُ من قولِه: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، كانَ أدلَّ على عِظَم قُدرةِ الخلّاقِ العليمِ وكمالِ علْمِه وحِكمتِه.

دَلالةُ (من):

بيانُ أصْلِ خلْقِ الإنسانِ دَليلٌ على إعجازِ القرآنِ وأنَّه من عندِ الله

تفيدُ (من) في ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ﴾ في الموضعَيْن: الابتداءَ، بمعنى أنَّ ابتداءَ خلْقِ الإنسانِ كانَ من صلصالٍ وابتداءَ خلْقِ الصّلصالِ كانَ من حَمَأٍ مسنون، فيكونُ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ صفةَ تقْييدٍ للصّلصال، بمعنى أنَّ الحمأ مادَّةٌ سابقةٌ للإنسانِ على كونِه كان صلصالًا، وفي بيانِ أصلِ خلْقِ الإنسانِ بيانٌ لعجيبِ قُدرةِ اللّه تعالى الواحدِ الأحدِ؛ لأنَّ خَلْقَه مِنْ هذه الأُمورِ أعْجَبُ مِنْ خَلْقِ الشَّيْءِ مِنْ شَكْلِه وجِنْسِه، ولأنّه تعالى أخْرَجَ مِنْ هذه الحالَةِ المَهينَةِ نَوْعًا هو سَيِّدُ أنْواعِ عالَمِ المادَّةِ ذاتِ الحَياةِ، ولمّا كان بيانُ أصلِ الخلقِ ليس في علْمِ الإنسانِ في وقتِ التّنزيلِ، كان ذكرُه وبيانُه دليلًا على إعجازِ القرآنِ وكونِه من عندِ اللّه تعالى وحجّةً على نُبوّةِ رسولِه ﷺ[1].

دَلالةُ الوصْفِ بقولِه تعالى ﴿مَّسْنُونٍ﴾:

تنوّعُ المعنَى لِتنوُّعِ التّوجيهِ

إمّا أن يكونَ لفظُ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ بمعنى مُصوَّرٍ، ليكونَ مأخوذًا من سنةِ الوجْه، أي: صورته، وإمّا أن يكونَ بمعنى مصبوبٍ، من سنَّ الماءَ، أي: صبَّه، والمعنى: من صلصالٍ مفرَّغٍ على هيئةِ الإنسان كما تُفرّغُ الصّوَرُ مِنَ الجواهرِ المُذابةِ في القوالبِ، وعلى هذين المعنَيَيْن يكونُ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ صفةً لـ﴿صَلْصَٰلٍ﴾، وقُدِّمتِ الصّفةُ غيرُ الصّريحةِ؛ أي: الجارّ والمجرور في قولِه: ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ على الصّفةِ الصّريحةِ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ لنُكتةٍ تقْتضي العُدولَ إلى هذا التّقديم، وهي كونُ الحَمَأِ مناسبًا لِلصّلصال في كونِ كلٍّ منهما من قَبيلِ الموادِّ،

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/137، والشهاب، عناية القاضي: 5/510، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/42.

فهما مُتقدّمان على الصّورةِ في الوجود، فروعيَ ذلك في الذِّكرِ، كما أنَّ في تقديمِ الصّفة غيرِ الصّريحةِ تنبيهًا على أنَّ ابتداءَ مسنونيَّته ليس في حال كونِه صلصالاً بل في حال كونِه حمأ، كأنَّه سُبحانه أفرغَ الحمأ، فصوَّرَ من ذلك تمثالَ إنسانٍ أجوفَ، فيَبِسَ، حتَّى إذا نُقِرَ صوَّتَ، ثمَّ غيَّرَهُ إلى جوهرٍ آخرَ، فتباركَ اللّه أحسنُ الخالقين، كما يحتملُ أن يكون ﴿مَّسۡنُونٖ﴾ بمعنى مُنْتِنٍ، فيكونَ صفةً لـ﴿حَمَإٖ﴾[1].

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

تنوُّعُ ذكْرِ أصْلِ خلْقِ آدمَ عليه السلام لمُناسبةِ أطوارِ خلْقِه

لمّا قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ كان ظاهرُ هذه الآيةِ أنَّ آدم خُلِق من صلصالٍ؛ أي: طينٍ يابسٍ، وقد جاء في آياتٍ أُخرَ ما يدلُّ على خلافِ ذلك، كقوله تعالى: ﴿طِينٖ لَّازِبِۭ ١١﴾ [الصافات: 11]، وكقوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: 59]، والجوابُ: أنَّه ذكرَ أطوارَ ذلك التّراب، فذكرَ طوْرَه الأوّلَ بقوله: ﴿مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: 59]، ثم بُلَّ فصارَ طينًا لازبًا، ثم خُمِّرَ فصار حمأ مسنونًا، ثم يَبِسَ فصارَ صلصالًا كالفخّار، والمعنى: خُلِق من هذا وذاك وذلك[2].

(1) الشهاب، عناية القاضي: 5/510، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/143.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/349، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/188، والشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 185.